القصيدة الرابعة

ألا أيها الواشي إلامَ تكذِّبُ ... وتُكفِرُ مَن هو مؤمن وتُؤنِّبُ
وآليتُ أني مسلمٌ ثم تُكفِرُ ... فأين الحيا أنت امرؤٌ أو عقرَبُ؟
ألا إنني تِبرٌ وأنت مُذهَّبٌ ... ألا إنني أسدٌ وإنك ثعلبُ
ألا إنني في كل حرب غالبٌ ... فكِدْني بما زوّرتَ والحقُّ يغلِبُ
وبشَّرني ربي وقال مبشّرًا ... ستعرف يومَ العيد والعيدُ أقربُ
ونعَّمني ربي فكيف أرُدّه ... وهذا عطاء الله والخَلقُ يعجَبُ
وسوف ترى أني صَدوقٌ مؤيَّدٌ ... ولستُ بفضل الله ما أنت تحسَبُ
ويبدي لك الرحمن أمري فينجلي ... أهذا ظلامٌ أو مِن الله كوكبُ
يرى الله ما هو مختف في قلوبنا ... فيفضَح من هو كاذبٌ ويكذِّبُ
ويعلم ربي من هو الشرّ مَنــزِلاً ... ومن هو عند الله بَرٌّ مقرَّبُ
إلامَ ترى زُورًا كصدقٍ ممحَّضٍ ... وتستجلب الحمقى إليه وتجذبُ
وقاسمتَهم أن الفتاوى صحيحةٌ ... وعليك وِزرُ الكذب إن كنت تكذِبُ
وهل لك مِن علمٍ ونصٍّ محكم ... على كفرنا أو تخرِصَنَّ وتَتغَبُ
كمثلك أممٌ قد أُبيدوا بذنبهم ... فتَحَسَّسَنْ من نبئهم ما أُعقبوا
أتُغدِف في حربي قناعًا دوننا ... وتترك ما أمّمتَ جُبنًا وتهرُبُ
وما البحث إلا ما علمتَ وذُقتَه ... وتلك وِهادٌ للمنايا تُقوِّبُ
وما في يديك بغير فلسٍ مُذهَّب ... تُضِلّ أُمَيمًا بالسراب وتخلُبُ
وشاهدتُ أنك لستَ أهلَ معارفٍ ... وتلهو وتهذي كالسكارى وتلعبُ

متى نُبْدِ أخلاقًا فتُبْدِ ذميمةً وتترك ما هو مستطابٌ وأطيبُ
وعاديتني وطويتَ كشحًا على الأذى ورميت حقدًا كل ما كنتَ تَجعَبُ
وكنتَ تقول سأغلبنّ بحجّتي وما كنتَ تدري أنك اليوم تُغلَبُ
ولستُ بعادٍ مسرف بل إنني عَروفٌ على إيذائكم أتحبّبُ
وإني أمامَ اللهِ في كل ساعة وينظر ربي كلَّ ما هو أكسَبُ
فإن كنتَ عاديتَ الخبيث تديُّنًا فتُكرَمُ عند مليكنا وتُقرَّبُ
وإن كنتَ قد جاوزتَ حدَّ تورُّعٍ وقفوتَ ما لم تعلمنّ فتُعتَبُ
فسوف ترى في هذه ضربَ ذلّةٍ ويومُ نكال الله أخزى وأعطَبُ
ومَن كان لاعِنَ مؤمنٍ متعمدًا فعليه ذلّةُ لعنة لا تَنكُبُ
أتأمر بالتقوى وتفعل ضده وتنكث عهدًا بعد عهد وتهرُبُ
ولي لك في أعشار قلبي لوعةٌ فكفِّرْ وكذِّبْ إنني لست أغضَبُ
ألا أيها الشيخ اتق اللهَ الذي يهدّ عمارات الهوى ويخرّبُ
إذا ما توقَّدَ قهره يهلك الورى فما حيصَ من ابن حُسام يعضَبُ
أتعوي كمثل الذئب والله إنني أراك كأنك أرنبٌ أو ثعلبُ
وما إن أرى في خيط كبدك قوةً ويُصلح ربي ما تَهُدُّ وتشغَبُ
ألم تعرفَنْ رؤياي كيف تحققت وأصدقُ رؤيًا مؤمنٌ لا يُكذَّبُ
ويأتيك من آثار صدقي بكثرة فليرقُبَنْ أوقاتها المترقِّبُ
فإن كنتُ كذّابًا فأنت منعَّمٌ وإن كنتُ صدِّيقًا فسوف تُعذَّبُ
أتُكفرني في أمر عيسى تجاسرًا وكذّبتني خطأً ولستَ تُصوِّبُ
تُوفِّي عيسى هكذا قال ربنا صريحًا فصدّقْنا ولا نتريَّبُ

وكيف نكذّب آيةً هي قوله ... وتصديق كلمته أهمُّ وأوجبُ
نَهَى خالقي أن نُحْيِيَنَّ ابنَ مريمٍ ... وتلك التي كفّرتَ منها وتَنصَبُ
ولم يبق لي في موته ريحُ ريبة ... لِما أَلهَمَني ملكٌ صدوقٌ مؤوِّبُ
أقول ولا أخشى فإني مثيله ... ولو عند هذا القول بالسيف أُضرَبُ
ووالله إني جئتُ حين مجيئه ... وهو فارسٌ حقًا وإني مُحقِبُ
وقد جاء في القرآن ذكرُ وفاته ... وما جاء فيه هو الذي هو أصوَبُ
ولو كان في القرآن أمرٌ خِلافَه ... لآثرتُه دينًا ولا أتجنَّبُ
ولكن كتاب الله يشهد أنه ... تناوَلَ مِن كأس المنايا فتعجَبُ
أمِن غير منبع هديه نطلب الهدى ... وكلٌّ من الفرقان يُعطى ويوهبُ
فنؤمن بالله الكريم وكُتبه ... فأين بحقدك يا مكفِّرُ تذهبُ
ويعلم ربي كلَّ ما في عَيبتي ... عليمٌ فلا يخفى عليه مغيَّبُ
وهذا هدى الله الذي هو ربنا ... فإن كنتَ ترغَب عن هدًى لا نرغَبُ
وإن سراجي قوله وكتابه ... فإن أعْصِه فسناه مِن أين أطلُبُ؟
وإن كتاب الله بحرُ معارفٍ ... ونجدنْ فيه عيونَ ما نستعذبُ
وكم من نكات مثل غِيدٍ تمتَّعَتْ ... بها مُهْجتي مِن هدي ربي فجَرِّبوا
إذا ما نظرتُ إلى ضياءِ جماله ... فإذا الجمال على سنا البرق يغلبُ
رأيتُ بنورٍ نورَه فتبيَّنتْ ... عليَّ حقائقه ففيها أُقلَّبُ
يصدّ عن الطغوى ويهدي إلى التقى ... خفيرٌ إلى طرق السلامة يجلبُ
يجرّ إلى العليا وجاء من العلى ... كما هو أمرٌ ظاهرٌ ليس يُحْجَبُ
وسرٌّ لطيفٌ في هداه ونكتةٌ ... كنجمٍ بعيد نورها تتغيبُ

ومن يأته يُقبَلْ ومن يُهدَ قلبُه إلى مأمنِ الفرقان لا يتذبذبُ
يُضيء القلوب ويدفَعنّ ظلامَها ويشفي الصدور سوادُه ويهذِّبُ
فقلتُ له لما شربتُ زلاله فدًى لك روحي أنت عيني ومشرَبُ
وكم مِن عَمِيٍّ قد كشفتَ غطاءهم ونجّيتَهم عما يعفِّي ويَشغَبُ
ألا رُبَّ خصمٍ خاضَ فيه عداوةً فألهاه عن خوضٍ سناه المؤنِّبُ
وإن يفتَحنْ عينيك وهّابُ الهدى فكايِنْ ترى مِن سرِّه لك معجبُ
وأنّى لعقل الناس نور كنوره وإن النهى ببيانه يتهذَّبُ
ووالله يجري تحته نهرُ الهدى ومَن أكثر الإمعان فيه فيشرَبُ
ومن يمعن الأنظار في ألفاظه فإلى سناه التام يَصْبُ ويُسْحَبُ
ومن يطلب الخيرات فيه ينَلْنَهُ ويرى اليقينَ التام والشكُّ يهرُبُ
ومن يطلُبَنْ سبلَ الهدى في غيره يكُنْ سعيه لعنًا عليه فيُعطَبُ
ومن يعصِ فرقانًا كريمًا فإنه يُطعِ السعيرَ وفي الجحيم يُقلَّبُ
وما العقل إلا خَبْط عشواءَ ما يُصِبْ يجِدْه وما يُخطي فيهذي ويلغَبُ
ومهما تكُنْ من عين ماءٍ بارد تراه حثيثًا عينُ صاد فيشرَبُ
وقد جئتُ بالماء المَعين وعَذْبه فأين النهى لا تشرَبَنْ وتُثرَّبُ
وسوف يريك الله نورَ تطهُّري ويُريك مَن منا صَدوقٌ وطيّبُ
خَفِ اللهَ عند الطعن في أوليائه أولئك قومٌ مَن قلاهم فيُشجَبُ
تعالَ وتُبْ مما صنعتَ فإنني أُصانِعُ من يتلقَّ حُبًّا وأصحَبُ
ولستُ مُدَعْثِرَ مَن جفا بل إنني عَروفٌ على إيذائكم أتحبَّبُ
وفي السلم والإسلام إني سابقٌ وإذا ترامیتم فسهمي مثقِّبُ

وإذا تضاربتم فسيفي قاطعٌ وإذا تطاعنتم فرمحي مُذرَّبُ
وإن المزوّر لا ينجّيه مكرُه وإن يخفَ في غار عميق فيُثْغَبُ
تذكَّرْ نصيحةَ غزنويٍّ صالحٍ وعليك سبل الرفق والرفقُ أعذَبُ
وكم من أمور الحق قلّبتَ جرأةً فسوف ترى يومًا إلى ما تُقلَّبُ
وإن كنتَ ذا علم فأَرني كماله وما ينفَعنْ بعد الغزاة تَصيُّبُ
وإني على علم وزدتُ بصيرةً من الله في أمري وأنت مكذِّبُ
خَفِ اللهَ حَزمًا يا ابنَ مَرْءٍ أحبَّني فدَعْ ما يلازمه عدوٌّ مخيَّبُ
وما يمنعنَّك من رجوع وتوبة آأليتَ جهلاً حلفةً فتُثَرَّبُ
وإن كنتَ ذا عسر وضَمْر مُعيَّلاً فإن شاء ربي تُرزَقنّ فتُحظَبُ
ووالله إن شقاك هيَّج لي البكا لدى عينِ إحياءٍ تموت وتُتغَبُ
ألا تعرِفنْ قصص الذين تمرّدوا فما لك تدري سمَّ ذنبٍ وتُذنِبُ
أتُدامُ بين الأقربين كباطرٍ وإن غداة البين أدنى وأقربُ
ومثلك جاف قد خلا ومكذِّبٌ فأبادهم ربٌّ قديرٌ معذِّبُ
سيسلب منك الضعفُ والشيب قوةً وما إن أرى عنك الغواية تُسلَبُ
فأكفِرْ وكذِّبْ أيها الشيخ دائمًا وإني بفضل الله رجلٌ مهذَّبُ
وألهمَني ربي وأعطى معارفًا فبنوره الأجلى إلى الحق أندُبُ
أتغفل من قهر الحسيب وأخذه وتُذعرنا من جَور خَلقٍ وتُرعِبُ
نجاتك من جذبات نفسك مشكلٌ يُزلّ الغلامَ الخفرَ بَكْرٌ هَوزَبُ
إلى الله مرجعنا فيُظهِر خَبْأَنا على الأشقياء وكلّ أمر مرتَّبُ
فقد كذّبوا بالحق لما جاءهم فسوف يُريهم ربنا ما كذّبوا

وقد كُذّبتْ قبلي عبادٌ ذوو التقى فصبروا على ما كُذّبوا وتَرقّبوا
فلما نسوا فحواءَ ما ذُكّروا به أُسفَّ وجوهُ قلوبهم ما قلّبوا
تَحامَون بالحقد المدمِّر كلّهم وأَمَّهم الشيخُ السفيه المعجَبُ
وكيف أخاف عنادَ قوم مفنَّدٍ ويَعْتامُني ربي عليهم ويصحَبُ
فأبغي رضا ربي وما أخشى العدا ولحرب أعداء الهدى أتأهبُ
ولكل نبأ مستقرٌّ معيّنٌ وما تُبسَل نفسٌ قبل وقت يُكتَبُ
وإن هُدى الله العليم هو الهدى ويعلم ما ندَعَنْ وما نحن نكسبُ
ويدري أناسًا كفّرونا وكذّبوا إذا ادّاركوا لنضالهم وتحزَّبُوا
قلاني الورى حتى الأقاربُ كلهم فمنهم كثعبان ومنهم عقربُ
وما نتقي حَرًّا بتلك الهواجرِ وفي الله ما نؤذَى ونُرمَى ونُجذَبُ
وإني بحضرته أموت بفضله فإن لم ينَلْنا العزُّ فالذلّ أطيبُ
ألا كلّ مجد قد طرحتُ كجيفةٍ وفي كل أوقاتي إلى الله أُجلَبُ
وإليه أسعى مِن جناني ومُهْجتي ولغيره مني القَلا والتجنّبُ
وإني أعيش بهذه كمسافر وفي كل آن مِن هوى أتغرّبُ
وما لي إلى غير المهيمن رغبةٌ وعن كل ما هو غير ربي أرغَبُ
ألا أيها الشيخ الذي يتجنبُ ترى، إن تَتُبْ، مني الهوى والتحبّبُ
ولستُ براضٍ أن ألاعِنَ لاعنًا فأختار نهج العفو والقلبُ مغضبُ
رأيتُ بساتين الهدى مِن تذلُّلٍ وإني بآلامي عُذَيقٌ مُرجَّبُ
تسبّ وإن أعذِرْك فيما تسبّني ولكن أمام الله تعصي وتُذنبُ
تصول عليّ لهتكِ عرضي وأعتلي وأعطانيَ الرحمن ما كنتُ أطلبُ

ترى عزّتي يومًا فيومًا فتنشوي ... وتهذي كأنك بالهراوى تُضرَبُ
أرى أن نَشْزِي فيك كالرمح لاعجٌ ... ويُلاعجنَّك شأننا المترقَّبُ
ولو لم يكن في القلب غير تغيُّظٍ ... فلا القلب إلا جمرةٌ تتلهبُ
ولا تحسبنّ قلبي إلى الضغن مائلاً ... تعاشيبُ أرضي خُلّةٌ وتحبُّبُ
كمثلك عاد ما رأيتُ ولاعنًا ... أقولُك قولٌ أم سِنانٌ مُذرَّبُ
أردتَ وبالي لكنِ الله صانَني ... تندَّمْ فقد فات الذي كنتَ تطلبُ
ولستَ عليّ مسيطرًا أو محاسبًا ... وما يعطينّ الربُّ أفأنت تسلُبُ
ترفَّقْ فإن الرفق للناس جوهرٌ ... وما يترُكنْ سيفٌ فبالرفق يُجلَبُ
ولا تشرَبنْ جهلاً أُجاجَ عداوةٍ ... ووالله إن السلم أحلى وأعذبُ
ومن كان لا يتأدبنْ مِن ناصح ... فله دواهي الدهر نِعمُ المؤدِّبُ
أيا لاعِني ما كنتُ بدعًا من الهوى ... لكل من العلماء رأيٌ ومذهبُ
عليّ لربّي نعمةٌ بعد نعمة ... فلا زلتُ في نعمائه أتقلّبُ
وإن رسول الله شمسٌ منيرةٌ ... وبعد رسول الله بدرٌ وكوكبُ
جرت عادة الله الذي هو ربنا ... يُري وجهَ نور بعد نور يذهَبُ
كذلك في الدنيا نرى قانونه ... نجوم السما تبدو إذا الشمس تغرُبُ
خَفِ اللهَ يا من بارزَ الله مِن هوى ... وإن الفتى عند التجاسر يرهَبُ
ولا تطلُبنْ ريحانَ دنياك خسّةً ... وشوكُ الفيافي منه أشهى وأطيبُ
يزيد الشقيَّ شقاوةً طولُ أَمنِه ... ويُرخي المهيمن حبلَه ثم يجذِبُ
إذا ما قصدتُ إشاعة الحق في الورى ... صددتَ وتبدي كلّ خبث وتَثلِبُ
وأنت ترى الإسلامَ قفرًا كأنه ... مقابرُ أموات وأرضٌ سَباسِبُ

تصول العدا من جهلهم وعنادهم على صُحف مولانا وكلٌّ يكذّبُ
وهديٌ كسِمْطَي لؤلؤٍ وزَبَرجَدٍ به الطفل يلهو من عناد ويجدبُ
ومن كل طرف تمطرنّ سهامُهم فهذا على الإسلام يومٌ عَصَبْصَب
نرى هذه من كل قوم بعيننا فتذرِف عينُ الروح والقلبُ يشجَبُ
فقمتُ فعاداني عداي ومعشري فلي من جميع الناس لعنٌ مركَّبُ
ولم يبق إلا حضرة الوتر ملجأٌ ومن باب خلّاق الورى أين أذهب؟
فإن ملاذي مستعانٌ يحبّني ويسقين من كأس الوصال فأشربُ
غيورٌ فيأخذ رأسَ خصمي إذا اعتدى غفورٌ فيغفر زلّتي حين أُذنبُ
وإني بَرِيءٌ من رياحين غيره وعذابُ شوكٍ منه عذبٌ وطيّبُ
يحبّ التذللَ والتواضع ربُّنا ومن ينـــزلَنْ عن فرسِ كِبرٍ يركبُ
وللصابرين يوسّع الله رحمه ويفتح أبواب الجدا ويقرّبُ
تعرّفتُه حتى أتتْني معارفٌ وإن الفتى في سُؤْله لا يلغَبُ
رأيناه من نور النبي المصطفى ولولاه ما تُبْنا ولا نتقربُ
له درجاتٌ في المحبّة تامّةٌ له لمعاتٌ زال منها الغَيهَبُ
ذُكاءٌ منيرٌ قد أنار قلوبنا وله إلى يوم النشور معقِّبُ
وفي الليل بعد الشمس قمرٌ منوَّرٌ كما في الزمان نشاهدنْ ونجرِّبُ
ولله ألطافٌ على من أحبَّه فوابلُه في كلّ قرن يسكُبُ
وشيمتُه قد أُفرِدتْ في فضائلٍ وقد فاق أحلامَ الورى أفتعجَبُ
ورعَى وآتَى الصحبَ لبنًا سائغًا وليس كراعي الغنم يرعى ويحلبُ
وليس التُّقى في الدين إلا اتّباعه وكل بعيد من هداه يُقرَّبُ

ولو كان ماءٌ مثل عسلٍ بطعمه فواللهِ بحرُ المصطفى منه أعذَبُ
مدحتُك يا محبوبُ مِن صدقِ مُهْجتي ولولاك ما كنّا إلى الشعر نرغَبُ
وإنا لَجئْنا في عطائك راغبًا ومنَ جاء بابك سائلاً لا يُثرَّبُ
ووالله حُبُّك للنجاة لمؤمنٍ دليلٌ وعنوانٌ فكيف نخيَّبُ
وآثرتُ حبّك بعد حبّ مهيمني وتُصبي جناني مِن سناك وتجلِبُ
ونستصغر الدنيا وخضراءَها معًا فلا نحتني منها ولا نُستخلَبُ
ألا أيها الشيخ الذي أكفرتَني وإني بزعمك كافرٌ ثم هَيدَبُ
فتلك بعون الله مني قصيدةٌ محبَّرةٌ ونظيره منك أطلُبُ
وهذي ثلاثٌ قد نظمنا وهدْيةٌ ببحرٍ خفيف للأحباء أنسبُ
فإن كنتَ ذا علم فآتِ نظيرَها وإنْ تعجزنْ جهلا فكِبرُك أعجبُ